

بناء المجتمع التقليدي حالة البدو المهاجرين إلى مدينة توقرت

د. لغريبي نسيمة
قسم علم الاجتماع
جامعة باتنة (الجزائر)

ملخص:

يتناول هذا الموضوع جانبا من التحولات الاجتماعية التي تتعرض لها المجتمعات التقليدية ، ومنها المجتمع البدوي الذي ميزت حياته ولمدة طويلة أنماط حياتية شكلت لدى الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية عامة، معايير تكاد تكون ثابتة في تحليلاتهم لخصائص هذه المجتمعات رغم ما لذلك من أحكام نمطية لا تتوافق في كل الأحوال وبعض التغيرات التي صارت عليها عديد المجتمعات التقليدية من خلال تفعيل علاقاتها مع غيرها من المجتمعات الريفية والحضرية، مثلما هو حال المجتمعات البدوية المستقرة بمدن الجنوب الجزائري.

Résumé:

Aborde cette question de côté des transformations sociales vécues par les sociétés traditionnelles, comme la communauté bédouine, qui a caractérisé sa vie pendant de longues modes de vie de temps formées entre les chercheurs dans le domaine des sciences sociales en général, les normes sont à peu près constante dans leur analyse des caractéristiques de ces communautés, en dépit de ce que si des dispositions du stéréotype ne correspond pas à tous les cas, et quelques-uns des changements qui sont entrés sur de nombreuses sociétés traditionnelles à travers l'activation de ses relations avec les autres communautés rurales et urbaines, comme c'est le cas avec les communautés bédouines dans les villes du sud de l'Algérie stable.

مقدمة

لكل مجتمع بشري نظم اجتماعية أساسية تشكل هيكله وإطاره الخارجي وتحدد علاقات وممارسات وتفاعلات أعضائه وترسم نموذج جوهره الداخلي وعناصره المثالية والروحية التي تجسد تماسكه ونموه وتطوره ،، فإذا القينا نظرة إلى ما حولنا من الجماعات أو الكائنات الحية لوجدنا أن لكل منها بناء يشكل وحدة متماسكة أو نسق اجتماعي ويتكون من أجزاء مترابطة يعتمد بعضها على بعض، بحيث يدخل كل جزء منها في عدد من العلاقات الضرورية المعقدة مع الأجزاء الأخرى التي تكون على أشكال مختلفة تبعاً لطبيعة الوظائف التي تقدمها للإنسان والمجتمع مثلها مثل الأجهزة العضوية التي يتكون منها الكائن الحي .

و هكذا يتكون البناء الاجتماعي من وحدات اجتماعية صغيرة يضبطها أو يحكمها نسق من القواعد والمعايير الاجتماعية والثقافية. وأن هذا البناء يستند إلى قاعدتين أساسيتين مهما كان حال الجماعة صغيراً أم كبيراً ، وذلك إلى قاعدة مادية طبيعية وهي الأرض وما تحويه في باطنها وما يقوم على سطحها من أشياء مادية ، وثانيها قاعدة غير مادية أي ثقافية بالمعنى الواسع للثقافة وكل ما يدخل في إطارها من تاريخ ودين وتراث معنوي وأدب مكتوب وغير مكتوب ، وهاتان القاعدتان والتفاعل الذي يحصل بينهما هو الذي يعطي خصوصية ونمط محدد للبناء الاجتماعي أو أي مجتمع إنساني وهو الذي يفسر بناء اجتماعي عن آخر .

فقد تتشابه الثقافة في عدد من المجتمعات المتباعدة دون أن يستلزم ذلك تشابه أبنيتها، بل إن الاختلاف في البناء كثيراً ما يوجد في المجتمع الواحد الذي تسود فيه ثقافة واحدة والتي تتمثل في وحدة اللغة ووحدة الدين، وكذلك في تشابه طرائق السلوك وقواعد العرف والتقاليد والعادات الاجتماعية والقيم. إذ رغم هذا التشابه الثقافي العام، توجد اختلافات بنائية في المجتمعات المحلية التي ينقسم إليها المجتمع الكبير .

ويظهر هذا بشكل واضح في كل المجتمعات العربية التي يسودها نمط ثقافي واحد، ومع ذلك يلاحظ الاختلاف في بناء مجتمع المدينة عن بناء مجتمع القرية وعنه في بناء المجتمع القبلي الصحراوي . وعليه سنحاول في موضوعنا دراسة وتحليل العوامل المختلفة التي أسهمت في تشكيل البناء الاجتماعي للمجتمع التقليدي والوقوف على طبيعة هذا البناء في واحد من المجتمعات التقليدية ذات الامتداد البدوي المستوطن بمدينة توقرت بالجنوب الجزائري وما طرأ عليه من تغيرات .

1- البناء المفهوم والخصائص

فالبناء هو صورة منظمة من العناصر المتماسكة ومن ثمة فهو مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عدد لا حصر له من النماذج⁽¹⁾ .

وكثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية تناولوا في كتاباتهم مفهوم البناء الاجتماعي، منهم " فيرث " firth ، الذي يرى أن البناء الاجتماعي يشير إلى العلاقات الاجتماعية الجوهرية التي تحدد الشكل الأساسي للمجتمع وتبين الطريقة التي بواسطتها تنفذ الأعمال والفعاليات الروتينية والنظامية، أما " فورتس " Fortes فيعتقد بأنه ذلك التركيب المنظم والمنسق للأجزاء المختلفة التي يتكون منها المجتمع كالمؤسسة والجماعة العملية والمركز الاجتماعي⁽²⁾ .

1 - حسين عبد الحميد رشوان ، البناء الاجتماعي (الانساق و الجماعات) مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 2007 ص4

2 - محمد علي سلامة ، البناء الطبقي في الريف المصري - بين التاريخ وعلم الاجتماع - دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية

ومن جهة أخرى عمل "راد كليف براون" Radcliffe Brown على دراسة الفروق الأساسية بين الحضارة والبناء الاجتماعي في كتابه (العلم الطبيعي للمجتمع)، حيث أشار إلى أن حضارة المجتمع تتعكس في أنماط سلوكية أفرادها وفي تفكيرهم وشعورهم، بينما البناء الاجتماعي هو شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط الأفراد خلال نقطة زمنية معينة ويؤكد براون في دراسته هذه على ضرورة دراسة الحضارة دراسة علمية من خلال النظر إلى البناء الاجتماعي.

كما يستعمل هذا الاصطلاح بكثرة في النظرية البنائية الوظيفية، ويعني هنا العلاقة المتداخلة بين المراكز والأدوار الاجتماعية والتفاعل الذي يقع بين الأشخاص داخل النظام الاجتماعي يمكن التعبير عنه من خلال المراكز والأدوار الاجتماعية التي يشغلونها، لكن البنية الاجتماعية تتكون من المؤسسات البنوية الأساسية التي تحدد طبيعة المجتمع والمؤسسات البنوية التي تتكون من تكامل الأدوار الاجتماعية لأعضائها ومنتسبيها.

وتعتبر نظم العائلة و القرابة و الزواج من أهم النظم البنوية التي تؤثر في شكلية و استمرارية و فاعلية و ديناميكية البناء الاجتماعي و الثقافي للمجتمع، فهذه النظم الأساسية لا تؤثر في نماذج التنشئة الاجتماعية التي تعتمدها العائلة و في أطرها الفكرية و السلوكية و الأخلاقية فقط، بل تؤثر أيضا في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد و المجتمعات و تحدد معالم الشخصية النموذجية التي يتسم بها الفرد و المجتمع و ترسم طبيعة العلاقة الكمية و النوعية بين السكان و الموارد الطبيعية التي يمتلكها المجتمع، إضافة إلى أهميتها المتزايدة في تثبيت السمات الجوهرية للمؤسسات البنوية المادية و غير المادية التي تتفاعل معها و ترافقها أثناء عملية استمراريته و نشاطها و تحولها.

كما أن هذه النظم البنوية تلعب الدور المؤثر في تغيير الصفات الذاتية و الموضوعية للفرد و الجماعة، هذا التغيير الذي يعتبر حجر الزاوية في المجتمع برمته.

2- المجتمع البدوي و البداوة

ولأن موضوعنا يركز على المجتمع البدوي بوصفه مجتمع تقليدي فإنه يتطلب بداية التطرق لمفهومه، إذ يمكن القول أن المجتمع البدوي هو من تلك المجتمعات البدائية التي تعيش في العصر الحاضر حياة تقليدية تمتاز بالبساطة و عدم التعقيد، فضلا عن تشابك النظم و العلاقات الاجتماعية و تعدد وظائفها، ويمثل حالة حضارية أقل تقدما لو قورنت بحالات حضارية أخرى متقدمة سواء كانت قديمة أو حديثة.

و يعرف كذلك على أنه مجموعة من الناس التي تمتاز بتقلها المستمر و بالحياة التقليدية البسيطة ذات النظم و العلاقات الاجتماعية اللانظامية، حيث البداوة أسلوب حياة اجتماعية قوامها التفاعل بين الفرد و الجماعة من جهة و البيئة الطبيعية من جهة أخرى، وهذا التفاعل الاجتماعي مع ظروف البيئة يكون وفقا لعادات و تقاليد و نظم اجتماعية تمكن المجتمع البدوي من العيش و البقاء، ولذلك فإن البداوة تعتبر نمطا ثقافيا لمجتمع معين هو المجتمع البدوي.

فالمجتمع البدوي يقوم على التنقل الدائم لأعضائه في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية و على كفاية الوسائل المستعملة في استغلالها من ناحية و على الأمن الاجتماعي و الطبيعي الذي يمكن أن يتوافر من ناحية أخرى. فالبداوة تعني الترحال و عدم الاستقرار في مكان ثابت⁽¹⁾.

وأن المجتمعات البدوية مجتمعات تقليدية تعتمد على مجموعة من النظم و العلاقات المتشابكة و يقل فيها التخصص إلى أدنى درجة ممكنة عكس المجتمعات الحديثة و بالتالي فالمجتمع البدوي هو ذلك الذي يضم تلك المجتمعات التي تحيا حياة تقليدية تتميز بالبساطة و عدم التعقيد⁽¹⁾.

¹ - محمد عبد الهادي دكلة. و آخرون - المجتمع البدوي. جامعة بغداد. 1979، ص، 59.

فالببدو يرتبطون بالقرابة والأنساب، ولذلك كانت العصبية خاصة جوهرية من خصائص البدوي، فالعصبية ضرورة في الحروب والدفاع وحماية القبيلة كما فرضت عزلة البدو الحفاظ على أنسابهم دون الاختلاط فأصبحت العصبية في القبائل نقية خالية من شوائب الدخول في أنساب متشابكة الأصول والفروع، ومن أهم الوظائف التي تقوم بها العصبية في نظم البداوة، هي وظيفة الحرب والدفاع عن القبيلة، ففي العصبية قوة ضغط اجتماعي تدفع الناس على التضامن لصالح القبيلة ضد العداوات الخارجية، فالعصبية كما يقول ابن خلدون تنتج سلطانا وجاها وشرفا. ومن أنماط العصبية، ما يتصل بالعائلة، فتصبح العصبية عائلية حين يتضاعف أفرادها للدفاع عن العائلة، والدفاع ضد الخطر المشترك، والتعاون لتحقيق المصالح العامة ومساعدة كل من يحتاج إلى المساعدة، ومع دفع الثأر أو طلب التعويض وفقا للتقاليد والأعراف البدوية.

والى جانب عصبية الأسرة، هناك التحالف الذي يحدث بين قبيلتين أو أكثر لمواجهة عدو مشترك، وهناك عصبية الولاء ويدخل فيها الكثير من الإخوة والموالين اللذين يدينون بالولاء للقبيلة دون غيرها. والنوع الأخير من العصبية، هو عصبية الإجارة أو الحماية، حين يحتمي بعض الأفراد من خارج القبيلة، فينتمون إليها، وقد يفقد الفرد الإجارة والحماية حتى ولو كان من نفس العصبية، فيحكم عليه بالطرده دون حماية من القبيلة.

وفي سياق تحليل البناء في المجتمع التقليدي يهتم في هذا المقام مناقشة البداوة كظاهرة أساسية في تحديد بناء المجتمع التقليدي.

أ- البداوة أنماطها وأشكالها:

حيث أن البداوة ليست نمطا واحدا متجانسا في مختلف المجتمعات، وهي كمثل الحضر لا يشكل مستوى واحد من التحضر، إذ نجد هناك ثلاث أنماط من البدو والبداوة وقد يلتقي نمطان من هذه البداوة أو الثلاثة معا في بلد واحد، فالبدو الرحل الذين يقيمون في الخيام بالصحراء وهم بعيدون عن مراكز الحضر ويعتمدون كليا في معيشتهم على الأغنام وبعض الجمال ينتقلون بواسطتها في الصحراء ويعيشون في عزلة تامة عن الحضر، يعشقون الصحراء و يضيّقون ذرعا بالمدينة كلما جاءوا إليها. تحكم سلوكهم مجموعة من القيم والأعراف البدوية وعلى درجة كبيرة من التماسك والعصبية، وليس لمفهوم الدولة وجود فعلي بينهم ولهم قضاؤهم البدوي الخاص بهم في كل المنازعات والخلافات. فالدولة غير موجودة في هذا النمط من البداوة وبالتالي ليس هناك أي خدمات، العادات والتقاليد هي سلطتهم التشريعية والقضاء البدوي هو سلطتهم التنفيذية ولا تمثل سلطة الدولة إلا في الأمن العام والقضاء على ما كان من عادات البدو ومن غزو واستيلاء. إلا أن هذا النمط من البداوة لا يشكل إلا شريحة ضيقة من البداوة في بعض البلدان العربية و بدرجات متفاوتة.

أما البدو المستقرون نسبيا فهم الذين استقروا نسبيا بالقرب من المدن أو القرى في تجمعات سكانية قبلية إما طوعا أو اختيارا وإما عن طريق حملات التحضير التي تقوم بها بعض البلدان. وهؤلاء يرحلون في مواسم معينة إلى المراعي ومصادر المياه ولكنهم يعودون إلى مراكز البدو لا يعتمدون كليا على تربية المواشي وإنما يمارسون شيئا من الزراعة والتجارة وتجمعاتهم الأساسية كما يترددون كثيرا على المراكز الحضرية لأسباب لا تنحصر في التجارة أو بيع منتجاتهم الحيوانية، قد تكون لشراء الحاجيات أو جلب الأعلاف أو المياه أو زيارة طبيب أو مستشفى أو زيارة أقارب أو الاطمئنان على بعض أفرادهم الذين يقيمون في القرى أو في التجمعات السكانية ويتعايشون أو يتعاملون مع أسباب المدينة والحضارة. وهذا النمط من البداوة شبه المستقرة أمثله وفرضته التغيرات التي طرأت على البيئة

¹ - د. صلاح الفوال، دراسة في علم الاجتماع البدوي، المرجع السابق، ص، 280-281.

الصحراوية باستجابة البدو بمساعدة من الحكومة أحيانا أو بدون مساعدة في أحيان كثيرة إلى التغيرات التي طرأت على البيئة الصحراوية إذ لم تعد الصحراء رقعة معزولة تماما كما كانت في العقدين أو الثلاثة عقود الماضية، ومع ظهور السيارات قضت على عزلت البدو في تلك القفار وأصبحت السيارات بأنواعها وأشكالها وأغراضها المختلفة تجوب الصحراء أثناء الليل و أطراف النهار. و قربت المسافات البعيدة ومكنت البدو من التواصل مع الحضر واستطاع البدو التعايش مع هذا الوافد الجديد على بيئتهم فاقتنوا السيارات و استعملوها لنقل المياه و الأعلاف و حمل المتاع في حالات التنقل و الترحال فقلما يخلو بيت أو مجموعة صغيرة من البيوت من السيارة أو صهريج ماء لخدمة البدو و تيسير أمور معاشهم، أصبحت شيئا أساسيا في حياتهم و يعبرون بها الحدود إلى قطر مجاور إذا أمكنت أو دعت الحاجة.

و النمط الآخر البدو المستقرون أو المتحضرين وهم البدو الذين قطعوا شوطا طويلا في الحضارة و استقروا في المدن و القرى و التجمعات السكانية و يزاولون مختلف الأعمال التي يزاولها أبناء الحضر بالإضافة إلى اهتمامهم بالمواشي للتجارة و زيادة الثروة الحيوانية بتشجيع و مساعدة من الدولة و هؤلاء البدو يشكلون قطاعا كبيرا نسبيا في المجتمع العربي. لقد تخلوا عن الأغنام كمصدر رزق و اتخذوها تجارة و هواية في كثير من الأحيان و منهم من انقطعت صلته تماما بالأغنام و انخرط في سلك أو مهنة مختلفة أو تجارة أو زراعة و ذهب أبناؤهم إلى المدارس و تابعوا تعليمهم إلى أعلى المراتب التعليمية، إلا أنهم لا يزالون يؤمنون بالقيم البدوية التي تحكم سلوكهم بوجه عام. و هذا النمط من البداوة يتعايش مع الحضر يؤثر و يتأثر بهم و يشكلون قاعدة عريضة في بعض البلدان العربية ذات الخصائص البدوية.

ب_ مظاهر الثقافة البدوية

تعتبر الدراسات الحديثة أن الثقافة تحمل معنى واسعا ، وهو الذي توقف عنده الأنثروبولوجيين بوجه خاص، فهي عندهم تضم جملة أنماط السلوك المشترك السائد في مجتمع معين . سواء كانت مادية أو معنوية . فبالإضافة إلى أنماط العيش و المأكل و الملبس و طراز التربية ، و آداب التحية و المعاشرة ، و تقاليد الزواج و الولادة و الوفاة ، و طقوس الأفراح و عادات اللباقة و النظافة و غيرها (1) و تضم الثقافة جوانب حضارية تتصل باللغة و الفكر و العقيدة و التشريع و الفكر و القانون و الفن و الأدب و اللغة و العلم و التقنية و غيرها و مع هذا فإن للثقافة بعدا رمزيا إذ إنها تجريد معنوي للسلوك (2).

و معنى هذا أن الثقافة تأخذ قوتها و عمقها الاجتماعي من هذا البعد الرمزي الذي يضيف على أبعادها شرعية الوجود، و هكذا فإن هناك اتجاهين في تلك التعاريف (3)، إذ ينظر أحدهما إلى الثقافة على أنها تتكون من القيم و المعتقدات و الرموز و الأيديولوجيات و غيرها من المنتجات العقلية، أما الاتجاه الآخر فيربط الثقافة بنمط الحياة الكلي لمجتمع ما، و العلاقات التي تربط بين أفراد و توجهات هؤلاء الأفراد في حياتهم و نظرا لتمييز البدو و البداوة فقد أشارت العديد من الدراسات إلى ضرورة التعامل معها بطريقة مختلفة لاتصافهم بصفات معينة من بينها أن البدوي يعتز بتراثه و عاداته و تقاليده و يعتز بحسبه و نسبه ، و يظهر ذلك في علاقاته مع الآخرين . كما يتصف البدوي بحدة الطبع و سرعة الغضب و الجدية في كل المواقف .

و تعتبر الثقافة المادية تعبير عن المحتوى المعرفي لثقافة الجماعات البدوية، و ليست مجرد مقتنيات مادية ، لذلك فدراسة الثقافة المادية تكشف عن جوانب عديدة للحياة الاجتماعية للإنسان البدوي .

¹ - مجموعة من الكتاب- نظرية الثقافة مترجمة علي الصاوي ، سلسلة المعرف ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون ن الكويت،، 1997.

² عبد الله عبد الدائم في سبيل ثقافة عربية دائمة ، الثقافة العربية و التراث. دار الآداب بيروت الطبعة 1 - 1983 ص 25

³ محمد عبد السعود مرسي ، التفسير الاجتماعي للثقافة- دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية 1990 ص 90

و من بين الممارسات الثقافية التي يقوم بها الإنسان البدوي للاهتمام بشكله ، تزيين و زخرفة جلد جسمه كالتلوين، الصباغة، الوشم، التنديب. فهذه النماذج (العلامات) المختلفة تميز القبائل والعشائر وأيضا الأشخاص و يكون لهذه العلامات معنى اجتماعي أو ديني. و يكون لها في بعض الحالات تمثيل توتمي Totem أو رموز تشير إلى البدنة التي ينتمي إليها الفرد. و قد تستخدم كتحدير ضد المحارم و لا تقتصر العلامات المميزة على الأفراد فقط بل أيضا تستخدم لتميز ملكية القبائل والعشائر والبدنات من الحيوانات والماشية.

بالإضافة إلى أهم مظهر يميز الإنسان البدوي هو اللباس، إذ تختلف مظاهر الملابس في المجتمعات، وكل مجتمع له طابع خاص في الملابس، و يتحدد كيفية و شكل الملابس تبعاً للاستخدامات. كما يشير إلى المكانة الاجتماعية و الدينية للشخص أو نوع المهنة التي يمارسها الفرد فهناك مثلاً معنى من استخدام رجال البدو "اللثام" و يظهر ذلك بوضوح عند قبائل الطوارق التي تعيش في جنوب الجزائر والأراضي الليبية و مراکش.

فالتراث الثقافي للمجتمعات البدوية يعكس بجلاء كفاح الإنسان و جهوده من أجل إشباع حاجاته البشرية كالحاجة إلى الراحة و الطعام و المأوى و تأمين نفسه ضد ما يهدد حياته في ضوء إمكانيات بيئية محدودة الموارد. و يمكن القول بأن المظهر المادي للبدوة يتجلى في العوامل البيئية البدوية و كذا الظروف الاجتماعية التي يعيش البدو في ظلها و أيضا الصناعة التي تضم مختلف المبتكرات و الاختراعات و الإضافات التي طرأت بفضل البدو على البيئة، و يعتبر المظهران المعنوي والمادي للبدوة في ارتباط وثيق فيما بينهما. أما في ما يخص حجم البدوة فهو لا يقل أهمية عن مظهرها حيث يمكن تحديد حجم ظاهرة البدوة كما و نوعاً في إعداد برامج و مشروعات التنمية المختلفة وذلك عند تخطيط تلك البرامج أو تنفيذها أو عند متابعتها .

ج - المجتمع الصحراوي كشكل من أشكال المجتمعات التقليدية:

لم تجد المجتمعات الصحراوية اهتماماً كبيراً من طرف الباحثين المختصين في علم الاجتماع بالمقارنة مع اهتمامهم بأشكال المجتمعات الأخرى، ورغم قلتها فقد وجدت بعض الدراسات الاجتماعية التي تهتم بأنماط الحياة السائدة في هذه المجتمعات الصحراوية.

فلم تعد الصحراء تعرف بالأقاليم الجرداء بعد اكتشاف الثروات الطبيعية البترولية و المعدنية الهائلة بها، كما أدى تدخل التكنولوجيا في مجال الزراعة الصحراوية و شبكة المواصلات إلى إحداث تغييرات جذرية في معالم هذه المناطق، ورغم ذلك فعدد من المجتمعات الصحراوية لازالت تميزها بعض تلك الخصائص التقليدية كالصغر والتجانس أو العزلة أو ضآلة الحظ من المعرفة التكنولوجية، في حين أن بعض المناطق لا يمكن أن تنطبق عليها هذه الخصائص لاختفاء بعض الملامح التقليدية للمجتمع.

وعموماً فإن واقع المجتمع الصحراوي الحالي ومنه المجتمعات التي توصف بالحضرية، يدل على وجود مظاهر التغيير الاقتصادي والاجتماعي وهذا نتيجة تدخل بعض العوامل التي طرأت على هذه المجتمعات، وإن كانت كثيراً منها مازال يعيش ما يعرف بمراحل الانتقال والنمو.

وعليه فإن مدن هذه المجتمعات لا تختلف عن سائر المدن الأخرى من حيث الوظائف والأدوار التي تؤديها تجاه سكانها، وأنها هي الأخرى تتميز بتواجد قطاع الخدمات و زيادة الحركة العمرانية⁽¹⁾، وهو الحال الذي بدأ يسود مجموع المدن الجزائرية ذات العلاقة بالبدوة وخاصة منها مدن الجنوب كمدينة توقيت.

¹ - عبد الله محمد عبد الرحمن: التوطن و التنمية في المجتمعات الصحراوية، دار المعرفة الجامعية 1991، ص، 30.

3- الأصول البدوية للمهاجرين إلى مدينة تقرت :

وتوقرت كمدينة صحراوية بالجنوب الجزائري تعاقبت عليها إستيطانات لقبائل مختلفة لكن أهمها كانت قبيلة " ريغا " وهي إحدى قبائل " زناتة " الأمازيغية، التي هاجرت إلى المنطقة حوالي القرن الثاني قبل الميلاد و بدأ استقرارها يصبح فعليا ابتداء من القرن الرابع بعد الميلاد، حيث بدأت في غرس غابات النخيل و بناء المدن (القصور) واستغلال مياه وادي ريغ بصفة فعالة.

ولم يدخل الإسلام هذه المنطقة إلا في القرن العاشر حيث بدأ بعض السكان في اعتناق المذهب الأباضي، و لكن الحروب و التنافس على السلطة السائد آنذاك بين مختلف عشائر " ريغا " أحال دون نهضة ثقافية و عمرانية تنافس باقي مملكات شمال إفريقيا، إلى أن جاء القائد " سيدي محمد بن يحيى " من المغرب و تمكن من جمع شمل العشائر المتناثرة تحت راية واحدة، وأوقف الحروب لمدة طويلة، وبعد وفاته تسلم الحكم "الحاج سليمان المريني" فحافظ على السلم مدة معينة ثم عادت الصراعات لتصبح داخلية هذه المرة بين أفراد عائلة " بني جلاب " الذين حكموا المنطقة حتى مجيء الفرنسيين سنة 1854 .

و تداولت المنطقة روايات مختلفة على أصل تسمية مدينة تقرت، فقول عبد الرحمن بن خلدون أن أصل التسمية بربري، و هذا من خلال نطق كلمة تقرت ذات الواقع الأمازيغي مثل مناطق مجاورة لها: غمرة، تالا، تبسبت⁽¹⁾. يتشكل مجتمع المدينة من مجموعات ارتبطت بالوسط الصحراوي أو هوامش الصحراء كالبدو وأصناف البدو؛ والذين غير التمدن من طرق وأنماط حياتهم نظرا للفترات الطويلة من الجفاف التي أصابتهم في الصحراء ، كما ساعدت عدة عوامل مند بداية القرن العشرين في عملية استقرارهم ضمن مدن الواحات، وتتميز هؤلاء البدو بالتمسك بعلاقات دامت طويلا وقامت على أساس تقاسم العمل والمقايضة والمبادلات، أما علاقاتهم مع أهل المدينة " تقرت " فقائمة على الأسس السابقة الذكر، إضافة إلى العمل في واحات النخيل .

أما في مجال دراستنا فيمكن التمييز بين مجموعات ذات الأصول البدوية التي استقرت في المنطقة نتيجة ظروف تاريخية، وبين مجموعات توطنت واستقرت قديما بين السكان الحشاشة وبين المجموعات التي بقيت تمارس الحضور الموسمي على هوامش المدينة الصحراوية حتى سنوات متأخرة ومنها من مازالت تمارس بدويتها والتبادل بين المدينة والبادية ولهذه المجموعة تصنيفات هي كالاتي²:

أ - سعيد أولاد عمر :

موطنهم الأصلي إلى الجنوب من وادي ريغ في منطقة الحجيرة على بعد 70 كلم جنوبا وحسب الروايات الشعبية أن قبيلتي(سعيد أولاد عمر و سعيد عتبة) الموجودتين في ورقلة لهما نفس الانتماء، هؤلاء البدو الحمالمة استوطنوا أولا منطقة " بلدة عمر " وهي واحة من واحات وادي ريغ 25 كلم جنوب تقرت، حيث ما تزال بعض العائلات منهم تتوطن في هذه البلدة التي يؤكد أعيانها أن تسمية بلدة عمر ما هي إلا إشارة إلى اسم جدهم في الثلاثينات من القرن العشرين، إذ بدأ توطن قبيلة سعيد في تقرت كعائلات امتلكت بعض النخيل، منهم من بقي في بلدة عمر ومنهم من أصبح ينتقل من منطقة الحجيرة في فصل الصيف لأجل رعاية النخيل ويعودون مع بداية الخريف وادي ريغ وهي تتوزع الآن إلى مجموعات عائلية ولا يسكنون في أماكن مشتركة رغم اندماجهم في نشاطات مختلفة .

¹ - محمد الطاهر بالعمودي - تقرت عاصمة وادي ريغ، ص 10.

² - خليفة عبد القادر - الهياكل الاجتماعية والتحولات المجالية في النزلة بتوقرت - ماجستير في الأنثروبولوجيا - جامعة قسنطينة 2005

ب - **الفتايت** : ومجموعة مميزة حيث أن قبيلة " سيدي فتيتة " بوسط النزلة قدمت من منطقة الشعة قرب الحجيرة واستوطنوا ببلدية النزلة التي ترتبط عمرانيا بالمدينة توقرت، وهناك من يرى أنها تعود إلى بداية القرن العشرين الفتايت مازال الكثير منهم يملك بعض النخيل في منطقة الشعة أغلبهم عائلات اندمجت مع الحياة الاجتماعية ومختلف الأنشطة .

والملاحظ أنهم قد شكلوا تجمعات عائلية في مختلف أحياء مدينة توقرت، ومعظم هذه العائلات سايرت التوسع العمراني الجديد للمدينة في سنوات السبعينات في حي " العرقوب " وهذا التجمع ظهر قبل التقسيم الإداري لسنة 1984.

ج- أولاد السايح وعرب الطيبات :

فمنطقة الطيبات التي تبعد مسافة 40 كلم في اتجاه الشرق من توقرت ،كانت أيضا مصدرا لتوطن العديد من البدو أولاد السايح، أولاد جامع، أولاد أحمد، أولاد عبد القادر وهم عروش متشابكة ومنتوعة في الهويات والانتماءات ذات الصلات القديمة بوادي ريغ ومنطقة توقرت بالخصوص كونت منطقتهم القريبة من توقرت عمقا صحراويا قريبا سمح بالتنقل و الاتصال المباشر بين مناطق انتماءاتهم ومناطق نشاطاتهم وتوطنهم في توقرت وهم ينتشرون في أحياء توقرت على شكل عائلات كثيرة مثل حي (عاسو) في بلدية النزلة حوالي 350 أسرة⁽¹⁾.

د- أولاد نايل :

وهم أهم المجموعات السكنية ذات الأصول البدوية المرتبطين بالسهوب الهامشية مع الصحراء بين " مسعد " ولاية الجلفة والهضاب العليا الغربية وهم ملوك تربية الأغنام ،ويتمركزون حاليا في حي عين الصحراء التي تبعد عن المدينة بحوالي 3 كلم سنة 1983، وكانت منطقة معزولة عن المدينة لعدة سنوات حتى سمي حي البدو وقبل تمركزهم كانوا يمارسون التنقل الموسمي بين وادي ريغ و أطراف السهوب وعلى هوامش الصحراء التي تتصل بالهضاب العليا بين مسعد⁽²⁾، ويعودون في بداية الخريف للعمل في واحات النخيل في عملية جني وفرز التمور ويقضون الشتاء في خيامهم في أطراف المدينة حتى حلول الربيع ليعودوا إلى مناطقهم ترقبا للعشب لمواشيهم وموافاة لموسم الحصاد وهذه العملية بدأت منذ الأربعينيات بعدما أصابتهم المجاعة.

وبدأت عملية استقرارهم بالمدينة ببناء بيوت قصديرية ثم تطورت إلى مساكن أكثر ملائمة، أما على صعيد العمل المهني فقد تطور مع بداية الثمانينات حين تحصل أغلبهم على مناصب شغل في الحقول البترولية كساتقين أو حراس أو حمالين نظرا لضعف معرفتهم بالعمل المتخصص حيث كانوا لا يعرفون سوى مهنة الرعي كحرفة وازداد تمركزهم نظرا لإدماج أولادهم في الحياة التعليمية والتربوية.

وبعد توطين أولاد نايل خاصة زادت توسعات الحي في شكل تجمعات قبلية على نفس الشكل الذي كانت تتجمع به في البيوت القصديرية كل جزء من هذا الحي ضم مجموعة معينة هم أبناء عشيرة واحدة، (أولاد طيبة، المهاش الكواكي، ...) وكل واحدة من هذه العشائر تحتل جزءا معينا على الهوامش كما التحقت بعض الأسر الفقيرة من مناطق أخرى ومن التل ومن الجنوب نظرا لقلّة أثمان الأراضي بهذا الحي.

هذا التجمع خط على أساس قطع أراضي مساحتها حوالي (250 م²) وزعت بين العائلات التي تم إحصاؤها في التجمعات الهامشية التي أعادت توزيعها فيما بينها على أساس القرابة العرش، وفي بعض الأحيان كان موظفي البلدية يستعينون بأعيان العرش في توزيع القطع على العائلات لتفادي التنازع بين الأسر والعائلات ،ونظرا لفقرها

¹ - عبد الحميد قادري ،التعريف بوادي ريغ ،من منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقوت ،الأمال للطباعة 1998

² - محمد صغير ،تقرير مفصل حول نشاطات لجنة الشؤون الاجتماعية والثقافية ،بلدية الزاوية العابدية ،لجنة الشؤون الاجتماعية والثقافية

أعدت إقامة " القربى " فوق قطعة الأرض الممنوحة لهم و القليلون منهم تمكنوا من رفع الجدار الخارجي فقط، مما أعطى مظهر حي عشوائي دون مرافق ولا تهيئة و لا صرف صحي ودون إنارة في توزيع قطع أراضي بشكل مخطط ورسمي.

بالرغم من كون هذا الحي مطبوع بتوطن البدو إلا أن التحاق عمران المدينة به سمح بتنوع سكانه من مختلف المجموعات الاجتماعية خاصة في الأطراف القريبة من النزلة أما وسط هذا الحي فقد تركز فيه أولاد نايل خاصة. أما أحياء التوسعات الجديدة التي بدأت في التسعينات، كحي النصر وحي المستقبل فقد استفادت من تخصيصات سكنية عمرت الفراغات التي كانت بين الأحياء القديمة وأحياء تركز البدو وتمثلت في السكن الفردي بالدرجة الأولى حيث ظهرت فيها سكنات ذات طابق أو طابقين ووزعت على سكان النزلة القديمة بالدرجة الأولى. هذه المجالات التي تموضعت بين النواة القديمة وحي النزلة القديمة وأحياء تمدن البدو هي في الواقع المجال الهام والمستقبلي لتوسع النزلة التي تمثل الجزء العمراني الجنوبي للمدينة..

خاتمة

إن تشكيل المناطق السكنية في المدينة يرجع عادة إلى عوامل مهنية أو عرقية أو ثقافية، وقد أصبح ذلك معروفا في البحوث والدراسات الايكولوجية الحضرية بصفة عامة، ومن ذلك فان مجتمع البحث الحالي ينحدر من جهة واحدة ، ولكن الصلة التي تربط أعضائه تختلف من مستوى إلى آخر، أي من مستوى العائلة إلى العشيرة فالقبيلة ، حيث يحدد هذا التدرج أشكال العلاقات المختلفة في الإقامة والسكن ، وكذا أماكن العمل وممارسة الحياة الفلاحية والرعي بصفة خاصة، والملاحظ أن الصلة التي تربط هؤلاء بجيرانهم في السكن تتدرج من صلة العائلة إلى القرابة و بدرجة اقل إلى الصداقة، وقد نتجت هذه الوضعية عن الفرصة التي منحها المشروع التوطيني في اختيار موقع البناء لكل هؤلاء السكان، كما يلاحظ وجود آخرين من غير الأهل أو الأقارب بالمنطقة واندماجهم معهم .

يميز مجتمع الدراسة الترابط والتكامل في العلاقات خاصة فيما يتعلق بالتعاون والتضامن الداخلي، لذلك وبناء على اختيار الإقامة تأتي العلاقات كنتيجة وتكون مؤسسة على هذا الاختيار حيث تعد الزيارة والتردد المستمر على الجار علاقة تلقائية تشمل مختلف الفئات ، فمعظم أعضاء هذا المجتمع يعيشون في إطار العلاقات القائمة على علاقات وتقاليد الجيرة التي ارتبطوا بها منذ نشأتهم رغم أن ذلك يتم حسب فترات معينة . ومن الطبيعي أن يكون ذلك واحد من أسباب الدعم الداخلي خاصة وان هؤلاء مازالوا متحفظين اتجاه المحيط العام الذي يعيشون فيه، ومن هنا تتدعم العلاقات الداخلية.

ولاشك أن الظروف الايكولوجية التي تسود الصحراء تتدخل بشكل فعال في تحديد مواصفات وخصائص المجتمع الذي يقيم هناك وفي توجيه سلوك أعضاء ذلك المجتمع الذي يعتبر الرعي احد سماته الأساسية. وهذه الظروف نفسها ومعها أنماط النشاط الاقتصادي تقتضي قيام شكل معين من التنظيم الاجتماعي الذي يقوم على أساس العلاقات القبلية والروابط القرابية بحيث ينتظم سكان المجتمع في شكل قبائل تؤلف وحدات اقتصادية وسياسية متميزة وتنقسم إلى أقسام أصغر فأصغر وقد تختلف هذه الوحدات القبلية القرابية من مجتمع بدوي لآخر لكنها تعكس كلها نفس الأسس والمبادئ البنائية المتمثلة في التآزر والتماسك ضد الآخرين للحفاظ على وحدة القبيلة من جهة والدفاع عن حقوقها من جهة أخرى .

وإذا كان حال العلاقة الجوارية حسب ما تبين سابقا، فإن ذلك يتعدى إلى درجة الثقة والأمان، حيث وبالنظر إلى مسار حياة هؤلاء الذين كانت معظم حياتهم الترحالية تستدعي تقسيم الأدوار بين أعضاء العشيرة و العائلة، فإن بعضهم يقوم بنقل القطعان إلى جهة بينما يقوم البعض الآخر بتولي شؤون الأسرة. وكل ذلك يتم في إطار من الاتكال

المتبادل سواء في العناية بالأسرة أو خدمتها. ولهذا فإن ائتمان الجار على المسكن يعد علاقة تلقائية كونتها التشئة ودعمتها الظروف الجديدة التي يعيشونها .

ولكن هذه الثقة في بعض الأحيان تكاد تتعدم اتجاه الجار لعدم وجود أي صلة بينهم كما هو حال الفئات المتقاربة الانتماء، إضافة إلى ما يحمله البدوي في العادة من شك إزاء الآخرين من سكان المناطق الحضرية وعدم الثقة في صدق نواياهم ومقاصدهم ودوافعهم.

إن طبيعة العلاقة بين الجيران في مجتمع البحث في مجملها علاقات أساسها بساطة المجتمع وتمسكهم بالتقاليد وبحكم الجيرة التي دعمتها روابط القرابة والصدقة القديمة، وبحكم ما ترتب عن الانتماء والروابط من مواقف تضامنية تطبع علاقات أفراد هذا المجتمع المدعم بالشعور بالاستقرار وتحافظ على الكثير من الخصائص القديمة. أما حالة التكيف إزاء الواقع الجديد فيلاحظ أن البدو المستقرين قد أصبحوا ينافسون أهل المدينة في امتلاك الوسائل الحديثة على مختلف أصنافها ووظائفها بل والتعامل معها يتم على دراية بكل ما تتطلبه هذه الوسائل من إتقان وخبرة.

المراجع المعتمدة :

- 1 - حسين عبد الحميد رشوان ، البناء الاجتماعي (الانساق و الجماعات) مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 2007 .
- 2 - محمد علي سلامة ، البناء الطبقي في الريف المصري - بين التاريخ وعلم الاجتماع - دار الوفاء لنديا الطباعة و النشر ، الإسكندرية 2000 .
- 3 - محمد عبد الهادي دكلة. و آخرون - المجتمع البدوي. جامعة بغداد. 1979.
- 4 - د. صلاح الفوال، دراسة في علم الاجتماع البدوي، المرجع السابق.
- 5- محمد علي سلامة ، البناء الطبقي في الريف المصري - بين التاريخ وعلم الاجتماع - دار الوفاء لنديا الطباعة و النشر ، الإسكندرية 2000 .
- 6- محمد عبد الهادي دكلة. و آخرون - المجتمع البدوي. جامعة بغداد. 1979.
- 7- د. صلاح الفوال، دراسة في علم الاجتماع البدوي، المرجع السابق..
- 8 - عبد الله محمد عبد الرحمن: التوطن و التنمية في المجتمعات الصحراوية، دار المعرفة الجامعية 1991 ، .
- 9 - مجموعة من الكتاب نظرية الثقافة - ترجمة علي الصاولي ،سلسلة المعرف ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ن الكويت،، 1997.
- 10 - عبد الله عبد الدائم في سبيل ثقافة عربية دائمة ، الثقافة العربية و التراث.دار الآداب بيروت الطبعة 1 -1983 .
- 11 - محمد عبد السعود مرسي ، التفسير الاجتماعي للثقافة-دار المعرفة الجامعية.الإسكندرية1990 ص90
- 12 - محمد الطاهر بالعمودي - تقرت عاصمة وادي ريغ، ص 10
- 13- خليفة عبد القادر- الهياكل الاجتماعية والتحولات المجالية في النزلة بتوقرت - ماجستير في الأنثروبولوجيا- جامعة قسنطينة 2005 ص68-72
- 14 - عبد الحميد قادري ،التعريف بوادي ريغ ،من منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقرت ،الآمال للطباعة 1998
- 15 - محمد صغير ،تقرير مفصل حول نشاطات لجنة الشؤون الاجتماعية والثقافية ،بلدية الزاوية العابدية ،لجنة الشؤون الاجتماعية والثقافية 2003-2004